

البحث في تاريخ العرب العسكري وفن الحرب في العصور الوسطى

د . سهيل زكار

استاذ التاريخ في جامعة دمشق

يمكن في النهاية الوصول الى قوانين ومبادئ ثابتة
شاملة في الحرب والاستراتيجية والتكتيك ؟

وفي محاولة لمعالجة هذه المسائل نجد أولاً انه على
الرغم من ان الحرب أول موضوعات التاريخ تدوينا
ورواية ، فإن موضوع التاريخ العسكري العلمي
الحديث هو أحدث فروع دراسات علم التاريخ
المعاصر ، ولذلك لم يتفق المؤرخون والباحثون على
اجابة موحدة لسؤال واحد محتواه : ما هو التاريخ
العسكري ؟

لقد عرفه بعضهم بأنه « تاريخ الحروب وخوضها »
او « تاريخ صراع المجتمعات المعبر عنه بواسطة
عصابات منظمة ورجال مسلحين » او « تاريخ الشرطة
الخارجية للمجتمعات و الأمم »^(١) .

إن هذه التعاريف تدفع نحو ايجاد تعريف للحرب
والصراع ، لكن قبل بذل الجهد في سبيل كشف هذا
التعريف علينا معالجة اسباب الاقبال على دراسة
التاريخ العسكري ، وهل هذه الدراسة مجدية ام لا ؟
فإقرار مبدأ الفائدة هو الذي يسمح بالقيام بالبحث ،

مع التطور السريع الشامل الذي لحق بعلم
التاريخ ، ويتنوع فروعه ، بات من المقرر ان « التاريخ
العسكري يعد من أهم فروع المعرفة التاريخية ، وغدا
البحث عن الماضي العسكري أمراً تقتضيه مصلحة كل
أمة من الأمم ، وكل جيش من الجيوش ، ذلك انه لا
شك مفيد من جوانب عديدة على الصعد الوطنية
المحلية والقومية والانسانية . ومما لا شك فيه ان
ميدان البحث في التاريخ العسكري يحتل مرتبة
سامية بين فروع الاختصاص والعمل التاريخي ،
وذلك بالنظر لما شغلته الحروب والصراعات من حيز
كبير جداً في حياة الانسان في الماضي ، وما تزال
تشغله في الحاضر وستشغله في المستقبل ، فالقتال
هو الظاهرة الوحيدة التي رافقت حياة الانسان منذ
بداية الخليقة وحتى الآن دونما انقطاع ، حتى ان
هذا قد أدى الى الاعتقاد بأن حياة الانسان على هذا
الكوكب بدأت بحرب . إن هذا يثير عدة اسئلة تتعلق
أولاً بإيجاد تعريف للتاريخ العسكري ، من حيث
المحتوى والمضامين ، ومن حيث اسباب الدراسة
وأهداف ذلك ، مع المحصلات والغايات ، ثم القوانين
والمبادئ التي يمكن اعتمادها اثناء الدراسة ، وهل

(١) الأبعاد الجديدة في التاريخ العسكري - ترجمة اللواء جبرائيل بيطار - ط. دمشق ١٩٨١. ص: ٤١١.

والعكس يعني قرار التوقف .

العسكري ، يزودهم بحس داخلي يساعدهم على اتخاذ القرار الاستراتيجي المناسب ، كما ان اخبار الماضي العسكري تساوي بالنسبة للرجال العسكريين ما تساويه التجربة العملية لدى رجال العلوم الأخرى التي يمكن ممارستها بشكل تطبيقي كامل في الحياة اليومية ، وهي التجربة التي يفتقر اليها العسكريون في معظم الأحيان وغالبية الظروف. ولقد بات من المقرر أن الفنيين لا يربحون المعارك، بل يربحها القادة المثقفون فالثقافة تساعد على استخدام الذكاء، في التحليل والتركيب «ولكي نغذي دماغ جيش من الجيوش في أيام السلم وجعله يتجه باستمرار نحو الحرب، فليس هناك كتاب أخصب من كتاب التاريخ» ولا أعظم فائدة.

وحتى بالنسبة للساسة الذين لا يحبذون دراسة التاريخ العسكري ، إن في هذا التاريخ فوائد ودرسا لا مثيل لها ، ذلك ان الحرب هي في البداية قرار سياسي ، وكذلك في النهاية هي استثمار سياسي ودبلوماسي ، ولا يمكن لأي سياسي اتخاذ مثل هذا القرار ، أو استيعاب نتائجه بدون الزاد الفكري الحاروي لعظة دروس الماضي ، والمبدع للخيال المخطط ، وبدون ان تكون لديه معرفة اصولية بمشكلات العلاقات بين العسكريين والدولة ، وبالحرث وآثارها على المجتمعات والاقتصاد ، وبالتقنيات واستمرارية الحياة وانصرافها .

فعل راس المشكلات التي تثيرها الحروب تأتي مسائل استيعاب نتائج الملحمة من نصر أو هزيمة ، فالقيادة السياسية هي وحدها التي يقع على عاتقها مسؤولية استثمار النصر العسكري ضمن الخطط العامة لقرار الحرب ، وضمن المعطيات الجديدة ، بحيث يتحول النصر الى انجاز له صفة الديمومة أو القدرة على الاستمرار .

ولايضاح هذه المسألة نستشهد ببعض اخبار الحروب العظمى في التاريخ القديم والوسيط ، وفي حروب هانيبال في ايطاليا ، كسب هانيبال العديد من المعارك ضد الرومان ، لكنه اخفق في دخول روما ، ونبع سبب اخفاقه الاساسي من عجز قيادة قرطاج السياسية ، وهذا العجز نفسه ادى فيما بعد الى تضييع جميع جهود هانيبال العسكرية ، والى دمار قرطاج ذاتها . ومثال آخر نجده في تاريخ العصور الوسطى في اخبار الفتوحات الاسلامية

يرى بعض الكتّاب ان انعدام الشعور بالامان في معظم مناطق العالم ، هو الدافع نحو الاهتمام بالمواضيع الأمنية العسكرية ، وخاصة الجانب التاريخي منها ، وأن الانسان الباحث عن الامن والسلم ، عليه ان يقرأ التاريخ ، وأن يتعرف الى اخبار ما سببته الحروب من دمار في الماضي ، فقد يساعد ذلك على تجنب اشعال الحروب ثانية ، وعلى قيام عصر للسلم والسلام .

إن هذه المقولة لا تعدو أن تكون دعوى سرابية ، ذلك ان تحقيق السلم الشامل ، وإلغاء الحروب أمر محال ، لأن الحياة قائمة على الصراع ، فيها خير وشر ، حق وباطل ، ظلم وعدوان ، تفاوت ومساواة ، استبداد وشورى ، استغلال القوي للضعيف ؛ والحديث عن السلم في أيامنا هو حديث سلم « الكبار » الذين بات من المحال عليهم الدخول بمواجهة مباشرة ، لأن معنى ذلك الدمار النووي الكامل ، وهو حديث يحاولون فرضه على « الصغار » لابتنالهم أو استغلالهم الدائم .

وفي الحقيقة إن دراسة تاريخ الحروب أمر بالغ الأهمية والتأثير ، ولا يرغب كثير من رجال السياسة في بعض مناطق العالم في الاقبال على دراسته ، لأن ذلك قد يؤدي الى التقبل الشعبي لرفع مكانة العسكريين ومؤسساتهم على حساب المؤسسات المدنية ، ذلك ان هؤلاء يرون ان الجيوش مجرد اداة من ادوات الحكم والسياسة .

ومهما يكن الحال فإن التاريخ العسكري الذي يهتم بالماضي الحربي على انه جزء من الماضي العام ، إنما هو مفيد جداً للشعوب عموماً ولجيوشها خصوصاً ، فما من شيء يربط المواطن بوطنه وأمتة ، ويؤثر به كما يفعل التاريخ ، واخبار الانجازات الحربية تفعل بالنفس فعل السحر ، فاذا كانت تروي اخبار الانتصارات فإنها تشد النفوس ، وتمتد العزائم ، وترفع المعنويات ، وتدفع نحو الامام ، وإذا كانت تروي اخبار الهزائم ، فإنها تعرض على الثأر وتشير النفوس للنهوض من عثارها ، وتعلم عقول الناس دروساً فيها عظة وعبرة ، وغير ذلك كثير .

اما العسكريون ورجال الاستراتيجية ، فإن التاريخ

الكبرى ، فإدارة عمر بن الخطاب استطاعت استثمار النصرين الحاسمين في اليرموك والقادسية ، وجعلت البلاد المفتوحة تصطبغ على الدوام بصيغة الاسلام والعروبة ، في حين انه في القرن الثاني عشر وما تلاه ، بعد ما تمكن المغول من اجتياح مناطق واسعة من العالم ، اخفقت الادارة السياسية المغولية في طبع الاراضي المستولى عليها بطابعها الخاص ، بل على العكس ، ذاب المغول في الشعوب المفتوحة ، ولم يبق منهم إلا ذكرهم في كتب التاريخ .

هذا في حال النصر ، أما في حال الهزيمة العسكرية ، فالقيادة السياسية ايضاً هي وحدها ، إذا ملكت الخبرة والمعرفة تستطيع جعل نتائج الهزيمة لا تتجاوز مسرح العمليات العسكرية ، وبالتالي إيقاف نزيف الخسائر وتثبيتها من كافة الجوانب عند الحد الأدنى ، وهي ايضاً التي تملك القدرة على النهوض من عثار الهزيمة بأسرع وقت .

ويمكن لنا في هذا المقام ان نسوق مثلاً من اخبار معركة أحد ، بين النبي محمد (ص) ومشركي قريش ، فعندما ظهرت بوادر هزيمة المسلمين استطاع النبي (ص) بأقصى سرعة إيقاف النزيف البشري ، وجعل الخسائر بالأرواح عند أدنى حد ، وأهم من هذا انه حال بين قريش وبين استثمار نصرها ، حيث قام فور وصوله الى المدينة [وكانت تبعد عن أحد قرابة ٢ كم] بإعادة تنظيم قواته ، وقاد هذه القوات للالتحام ثانية بجيش قريش ، وبهذا العمل تمكن (ص) من منع قريش من الهجوم على المدينة ، كما حوّل جيشان رغبة الثأر العارمة لدى جنده الى سلاح رفع به معنوياتهم ، وهكذا ازال آثار الهزيمة بسرعة وحسم . ومثال آخر يمكن ان نراه في حوادث فتح العراق أيام عمر بن الخطاب ، فعندما وقعت معركة الجسر ، وقتل ابو عبيد الثقفي ، كادت جهود العرب في فتح العراق ان تذهب سدى ، لكن عبقرية عمر السياسية وقدرته التنظيمية ، تداركت الموقف ، حيث قام بتشكيل جيش جديد ، بمعطيات جديدة ، وبعث به الى العراق ، فانتصر في البويب ، ومهد السبل للقادسية وأعد العدة لنيل نصرها الحاسم .

ويمكن ان نضيف الى كل ما سبق ان التاريخ العسكري يعلم رجال السياسة دروساً تساعدهم في الحكم ، فعلى رأس القضايا اثناء الحروب - بل حتى في السلم ايضاً - قضايا الترابط والتنسيق بين القيادة

السياسية والقيادات العسكرية ، ثم تأمين المساندة الشعبية للحروب التي تخوضها الجيوش ، ذلك ان اي جيش يدخل الحرب بلا ظهر شعبي لا بد ان يخسر ، ومن هنا نستطيع ان نفهم كيف ان المسلمين قبل اليرموك ، فصلوا شعب بلاد الشام عن الجيش البيزنطي ، واستدروا هذا الجيش الى اقتراف اعمال جعلته ممقوتاً على الصعيد الشعبي ، وهكذا عندما حلت به الهزيمة في اليرموك حسم الأمر بشكل نهائي ، واضطر هرقل الى مغادرة البلاد مع فلول قواته وتوديعها وداع المفارق الى الأبد .

هذه مسألة ضمن مسائل أمل ببحثها في مقالات مقبلة ، بشكل فيه ما يكفي من التفصيل ، وسنرى ما يشابهها في كثير من المناسبات ، وخاصة في فترة الحروب الصليبية ، حيث كان للمساندة الشعبية للجيوش المنظمة دور حاسم في تحرير الرُّها [أورفا الحالية في تركيا] أيام عماد الدين زنكي ، كما ان عدد المتطوعة الذين رافقوا صلاح الدين في حملاته ، خاصة يوم حطين قارب عدد الجند النظامي .

والبحث في التاريخ العسكري هو عمل تثقيفي كبير وقديم جداً ، كل ذلك على الرغم من ان العمل العلمي فيه حديث جداً ، فإنه نظراً للأهمية القصوى لمحتوياته أقبلت شعوب العالم منذ القديم على وقف جزء كبير من وقتها ومن نتاجها الفكري والأدبي والتشريعي للحديث عن الحروب . فقصة الخليفة هي قصة حرب بين الخير والشر ، أو النور والظلام ، بدأت بصراع أدى الى « طرد آدم من الجنة » ثم الى قيام واحد من ولديه بسفك دم اخيه ، ثم ان أقدم ما دونه انسان ما قبل التاريخ على جدران كهوفه هو اخبار صراعاته مع قوى مرئية أو موهومة ، وفي عصور التاريخ القديم نجد ان النتاج الملحمي في بلاد بابل - جلجامش - ومصر وبلاد الاغريق - الاللياذة والأوديسة - قد سبق النتاج الديني والفلسفي والتشريعي ، ومهد له ، لان ولادة الاشياء كلها تنأت من صراع فيه احتراق .

وإذا كانت بواكير الانتاج الفكري في الحضارات الاولى ، قد جاءت على شكل ملاحم سرمدية أرادت التاريخ لحروب سابقة ، فإننا نلاحظ في تاريخنا العربي ان موضوع « الأيام » ووقائعها هو محور قصائد الشعراء الجاهليين ، ثم بعد قيام الاسلام ،

كان أول أعمال التدوين باللغة العربية « الشمالية » [فيما عدا القرآن] موضوعها « المغازي النبوية » وفي التراث التاريخي العربي تحتل المغازي وأخبار الفتوح المكانة السامية ، وتشغل الحيز الأكبر والأهم .

ونعاود القول ثانية - تلخيصاً وتأكيداً - أنه إذا كان الانسان قد روى أخبار الحروب وأهتم بها ضمن الأطار التاريخي العام أو الخاص ، فقد جاءت رواياته مثل بقية روايات أحداث التاريخ الأخرى ، على شكل خامات لها ما لها وعليها ما عليها ، وهي على العموم تحتاج الى التصنيع ، ثم مع التطور الشامل لميادين البحث التاريخي وتحويل التاريخ الى علم قائم بذاته ، حل هذا التطور بساح فروع هذا العلم وخاصة الفرع العسكري ، وأقبلت جميع الأمم بتردد أو بحماس على الاهتمام بتطوير الأبحاث التاريخية العسكرية وتدريسها في الجامعات المدنية ، وفرضها إلى حد كبير ، وفي صورة مكثفة على طلاب « الأكاديميات » العسكرية على مختلف المستويات .

وقد أدى هذا الاهتمام المتنامي الى توسيع مفهوم التاريخ العسكري وتحويله من : ميدان يهتم بخبر المعارك والملاحم من الجوانب الفنية والتطبيقية القتالية ، الى ميدان يبحث في ماهية الحروب وأنواعها ، والاستراتيجية والتكتيك ، والسياسة والدبلوماسية ، وله علاقات عضوية وطيدة بعلوم الاجتماع والنفس ، والاقتصاد والإدارة ، والعقائد ، والتقنيات الهندسية والصناعية .

لقد صار الآن لفرع التاريخ العسكري ، مثل أي علم آخر : محتواه ، وقوانينه وغاياته ؛ وإذا كنا قد تعرفنا مبدئياً الى المحتوى ، ورأينا بعض الغايات ، فإن هناك جدلاً كبير حول قوانين البحث ، ثم هل يمكن للباحث في التاريخ العسكري أن يتوصل الى استخراج نتائج تغدو بمثابة قوانين ومبادئ عامة ؟ فبعض الباحثين يقول بأنه من الممكن استخراج قوانين إذا ما طبقت في كل حرب من الحروب يتم النصر ويحصل لصالح مطبقها وتلحق الهزيمة بخصمه ، ويجادل أصحاب هذه النظرية بأنه على الرغم من تبدل الأسلحة وتطورها ، فإن الانسان هو الانسان ، والأرض هي الأرض ، وأسس الصراعات وأسبابها ما زالت كما هي . فمنذ بدايات التاريخ وحتى الآن والصراع سجال بين شعوب آسيا

وأفريقيا المتوسطية كل على حدة من جانب أو جهة وشعوب أوروبا من جهة ثانية . وحركات الاستعمار الحديثة نحت نحو روما ، وسارت على ذات الطريق ، وحين تجهد الآن دول الاستعمار في سبيل الحصول على نفط العرب ، تفعل ما كانت تفعله روما حين جهدت للحصول على القمح من مصر وحوارن وشمال أفريقيا ، فالقمح كان لشعب روما « الطاقة » كما النفط لشعوب أوروبا حالياً [وفي المستقبل عندما ينفذ النفط وتحل الذرة محله سيكون الصراع على الفوسفات لاستخراج الوقود النووي] . ومثل آخر : ليس هناك فوارق أساسية بين الاحتلال الصليبي في العصور الوسطى لفلسطين والاحتلال الصهيوني لها في عصرنا هذا ، فالصليبيون جاؤوا من أوروبا وظلوا قادرين طالما أن أوروبا كانت قادرة على مددهم بالسلح والعقاد والرجال ، وطالما أن الفرقة حالة بساح الأمة العربية ، ومسيطرة ، وكلنا نعلم شأن أوروبا في قيام الاحتلال الصهيوني لفلسطين واستمرارية هذا الاحتلال حتى الآن .

وفي زمن الحروب الصليبية عانى العرب من مشكلة النقص في السلاح والعقاد ، وكانوا كلما خاضوا معركة مواجهة عامة مع المؤسسات العسكرية الصليبية ، كانت النتائج تأتي سلبية ، وكان عليهم خوض معركة فاصلة تحطم فيها هذه المؤسسة الصليبية الجبارة ، وعندما قرر صلاح الدين خوض مثل هذه المعركة ، رسم الخط الكفيلة لها ، وجهد يوم حطين أن لا تخوض قواته الإسلامية معركة مواجهة تصادية مع قوات الصليبيين مجتمعة ، فنجح في فصل أسلحة العدو بعضها عن بعض ، وبذلك استطاع أولاً : انزال ضربة قاصمة برجاله العدو منفردين ، ثم التفت الى فرسان الفرسان المدرع ، فأنزل به الدمار ، وقد نفذ صلاح الدين كل هذا بشكل معقد جداً ، إنما ببراعة منقطعة النظير [وهذه قضية تمّ بحثها بشكل مركز في كتاب وضعته بالتعاون مع اللواء سعيد طيان ، سيرى النور قريباً] . وحتى الآن في الحروب العربية الاسرائيلية لم تتبدل جواهر الأمور .

لا شك في صحة كل ما سبق ، لكن رغم ذلك فإن أموراً كثيرة قد تطورت تبعاً للتطور الحضاري والثقافي والصناعي والاجتماعي ، ففي يوم حطين - مثلاً - لم

تكن دمشق مشاركة بالمعركة مباشرة ، أما في أيامنا هذه ، فعندما تحدث الحرب لا تكون المعركة بين جيشين اجتماعاً ليلتحم كما في الماضي ، بل البلاد برأ وبحراً وجواً كلها ساح للمعركة ، ثم إن تدمير مدينة أو منشأة صناعية في الماضي كان لا يحتاج الى بناء أو ترميم كما في أيامنا هذه من حيث الوقت والنفقات .

وفي الحقيقة اذا كانت أصول اسباب النزاعات وجواهر الأمور لم تتغير ، فإن تغييراً جذرياً قد لحق بآدوات التطبيق وطرائقه العلمية ، ثم بالنتائج المباشرة ، لا بل البعيدة ايضاً . وكما ان المواد الأولية لأخبار التاريخ العسكري فيها من الصفات ما في مواد أخبار التاريخ العام ، فكذلك في التاريخ العسكري ، كما في التاريخ العام ، لا يمكننا الوصول الى معرفة الحقيقة المطلقة لما حدث في الماضي ، وإذا تعذر هذا اساساً ، بات من المتعذر ايضاً الوصول الى معرفة الحقيقة المطلقة لما حدث في الماضي ، وإذا تعذر هذا اساساً بات من المتعذر ايضاً الوصول الى قوانين ومبادئ ثابتة تفصيلية مطلقة في الحرب ، ولا عيب في ذلك ولا نقص ، لأن التعامل مع التاريخ تعامل مع الانسان ، ذلك الكائن الحي المختلف تماماً عن غيره من الكائنات ، وحسبنا ان نحصل من دراسة التاريخ العسكري على المعنويات ، وعلى ما يشد المواطن الى تراث الماضي ، مع الثقافة والخيال المبدعين ، وأسس الاستراتيجية والسياسة وما ارتبط بها .

ان جميع ما تم طرحه حتى الآن قصد به التمهيد لاثارة موضوع كتابة تاريخ العرب العسكري ، فالبحث في التاريخ العسكري لامة مثل الامة العربية - ذات الماضي العريق المشرق ، والحاضر الفاض بالمشكلات و الأزمات ، هو بحث زاخر بالفوائد التي تؤدي ، فيما تؤدي اليه : الى رفع معنويات الجند ، وزيادة معلوماتهم الاختصاصية ، وجعلها مرتكزة على قاعدة تراثية علمية صلبة ، ارتكازاً هادفاً ومتوازناً .

ثم إن في الكشف عن الماضي العسكري للامة العربية مساهمة فعالة في احياء تراث هذه الامة ، وخصوصاً في فترة اليقظة التراثية الحالية ، وهذا التراث المحقق والمدرس دراسة علمية وفنية إنما يزود المقاتلين العرب ، ويمدهم على اختلاف مراتبهم

بأرضيات نقية من معارف الماضي وتجارب الأجداد ، تدعم المعلومات العسكرية الحديثة ، وكما سلفت الاشارة ، على الرغم من التطور السريع الذي حدث في عصرنا فشمل السلاح ومن ورائه اسس استخدامه في القتال بقي الانسان في جوهره هو الانسان ، وبقيت الأرض هي الأرض ، وبقيت المواجهات والمشكلات والتحديات ثابتة بأسسها ، متجددة متغيرة بأشكالها الظاهرة فقط .

وفي تمكين المواطنين العرب والجند والقيادات من الثقافة العسكرية التراثية سلاح جديد عظيم الفعالية لا شك انه يساعد على تحقيق الوحدة ، وتحرير الأرض ، وصنع المستقبل المنشود ، وهو شرط اساسي للتنظير الاستراتيجي الموفق ، وصمام حكمة يمكن من اتخاذ القرار الأصح والاكثر احتمالاً للنجاح في المعركة ، وتحقيق النصر .

ولقد اخذت أمم الأرض المتقدمة في البحث في التاريخ العسكري منذ امد بعيد ، حتى صار لدى كل جيش من جيوشها أعداد من الاختصاصيين في علوم الماضي العسكرية ، كما ان هناك لدى بقية مؤسسات الامة اختصاصيين في التاريخ الاقتصادي او السياسي ، او الحضاري العام الى غير ذلك من الفروع . ومن المؤسف ان هذا الفن لم يدخل بعد دخولاً علمياً مؤصلاً الى اقطار الوطن العربي ، مثله في ذلك مثل بقية فروع التاريخ ، وصحيح ان في هذا الوطن من قَدُم ابحاث ذات صلة بالماضي العسكري العربي ، أو قام بإحياء بعض النصوص التراثية العسكرية ، لكن ما يلاحظ هو ان غالبية الأبحاث تكاد تكون تصنيفية إخبارية روائية ، التعليل والتحليل فيها شبه منعدمين ، وإن وجدا فهما مرتكزان على مبادئ العلوم العسكرية المعاصرة ؛ ثم هي تكاد ان تكون محصورة بمسائل فنية من التكتيك وتطبيقاتها القتالية على ارض المعركة ، دون اهتمام كبير بالسياسة والادارة والاقتصاد والتشريع ، فالابحاث التي تمت مثلاً حول فتح بلاد الشام ، تركزت على عبقورية خالد بن الوليد ، وخصوصاً يوم اليرموك ، ومع عدم التقليل من أهمية دور خالد البطولي وعبقريته ، ينبغي ان نتذكر ان قيادة المسلمين يوم اليرموك كانت مسندة الى أبي عبيدة عامر بن الجراح ، وأن كلا من أبي عبيدة وخالد

للمنشاطات البشرية والصراعات عبر العصور حيث ان لكل عصر مشكلاته وتحدياته .

ان تحقيق هذه المطالب واجب ، وهو ليس بالسهل مثلما انه ليس بالمستحيل ، وفيه ريادة ، ويأتي توقيت العمل فيه مع النداءات العربية والخطط المحلية والقومية التي تسعى نحو كتابة التاريخ العربي من جديد كتابة علمية ، قائمة على اسس مدارس عربية مقترحة لتعليل التاريخ ، مستفيدة الى اقصى حدود الحاجة من تجارب مدارس الامم الاخرى ، لكن مع الحفاظ على الاستقلال العربي ، والابتعاد ابتعاداً جذرياً عن كتابات مدارس الاستعرا ب والاستشراق التي قامت لخدمة المطامع الاستعمارية ، فجاءت مزورة ومشوهة ومعادية للحق والعلم وللأمة العربية ، وهذا الابتعاد ينبغي ألا يأتي على شكل نقد ورد ودفاع وتسويغ ، لا أبداً ، لأن في عملية الرد اعترافاً بالمرود عليه ، ووقوعاً غير مباشر في أحابله ، بل على الباحثين العرب الشروع في كتابة تاريخهم من وجهة نظر عربية ، وبالاستناد المباشر الى المصادر العربية ، لإعلان صورة التاريخ العربي على العرب والعالم إعلاناً مجرداً وواضحاً وهادفاً لا يخشى ولا يداهن ولا يناور . فتاريخ العرب صنعه العرب بأيديهم ، وهم وحدهم القادرون على كتابته وتعليل أحداثه « فاهل مكة ادري بشعابها » .

ولعشرين سنة خلت وتاريخ العرب العسكري ، على رأس شواغلي ، يحتل حيزاً كبيراً من تفكري ، وزاد اهتمامي بهذا الموضوع إثر حرب عام ١٩٦٧ ونتيجة لما قرأته عن دور الدراسات التاريخية العسكرية في خطط اسرائيل في تلك ، وكثر آنذاك الحديث عن العقيدتين القتاليتين الشرقية والغربية ، ومن جديد ازداد اهتمامي بهذا الموضوع إثر حرب رمضان التحريرية ، فبادرت الى كتابة ثلاث مقالات عن عقيدة العرب القتالية التي كنت ابحث فيها وما زلت ، وتابعته الاهتمام بهذا الموضوع ، وكان يثيرني خروج بعض الدراسات غير الوافية ، وكنت دائماً أطرح على نفسي العديد من الاسئلة ، على اساس ان العلم يبدأ بسؤال ، والسؤال يشكل نصف العلم الأهم ، ومحاولات الجواب تأتي لتغطية النصف المتبقي ، وكان على رأس الاسئلة : كيف نبداً بوضع اسس للبحث العلمي في التاريخ العسكري العربي ، ما هي

وساوها من القادة كانوا « ضباطاً » تابعين لإدارة حكومة مركزية مقرها « المدينة » كان على رأسها يوم اليرموك الخليفة عمر بن الخطاب ، وإدارة المدينة هي التي اتخذت قرار الفتح ، وعبأت لتنفيذه الجيوش وعينت القادة ، وملكت دائماً حق عزلهم ، وحق تعديل الخطط أو تغييرها . وبعد اليرموك وغيرها من المعارك كانت القيادة السياسية هي التي تستوعب نتائج الفتح ، وتعمل على تحويل النصر الحربي إلى حدث دائم ، والقيادة السياسية هي التي قامت بعد اليرموك بإدخال تعديلات جوهرية على الخطط الاستراتيجية السابقة ، وخاصة في مؤتمر الجابية [سنة ١٧ هـ] الذي حضره الخليفة عمر بن الخطاب بالذات .

من كل هذا نرى ان الحرب ، قرار سياسي له حسابات شاملة وأهداف ، وأن المنفذ العسكري انما يفعل ذلك لحساب القيادة السياسية ، ولولا القيادة لاعتبرت حربه مجرد أعمال اغارة ونهب ، ومن هنا نرى البون الشاسع بين واقعة « ذي قار » ضد الفرس لعرب ما قبل الاسلام وبين « القادسية » ، أو بين غارات عرب ما قبل الاسلام ومعاركهم ضد الفرس والبيزنطيين وبين حركة الفتوحات الكبرى .

ويلاحظ ان غالبية الأبحاث التي صدرت حديثاً بالعربية عن الماضي العسكري العربي إنما هي أبحاث هواة ، أو هي مقتبسة عن غير العربية ، ولقد آن الأوان للانتقال من الهواية والانتكالية والفكر المستورد الى الأصالة والاحتراف العلمي ، والانتاج والبحث لايجاد نواة مدرسة عربية تقوم بتأسيس « علم للتاريخ العسكري العربي » ، مركزة على التراث الفكري والتطبيقي العسكري للعرب ، وهو بلا ريب تراث غني للغاية يكاد المرء يكون غير مغال إذا قال انه لا نظير له لدى أية أمة من أمم الأرض : مدرسة عربية تستهدف الكشف عن عقيدة العرب القتالية التي مكنتهم في القرن السابع من قهر أكبر دول العالم ، وايصال العروبة والاسلام الى اطراف الأرض ، وفوق ذلك ضمنت الحفاظ على المكتسبات والتصدي لجميع الجهود الحربية العدوانية لأعداء العروبة والاسلام ، وهم أكثر من ان يحصون . ذلك ان صراعات الامم مستمرة لتباين المصالح والغايات ثم ان موقع الوطن العربي الجغرافي جعله كالقلب

المراحل التي مر بها هذا التاريخ ، ما هي مضامينه وأبعاده وسماته الخاصة والعامة ، ما هي الفوائد المجنية من البحث فيه للعسكريين والمدنيين على السواء ؟

وفي محاولة للإجابة على جملة الأسئلة هذه امكن التوصل أولاً الى اقتراح تصور أولي عام لأطوار تاريخ العرب العسكري ومراحله منذ قيام الاسلام وحتى نهاية العصور الوسطى العربية فقط ، وإن كان البحث سيستمر لإكمال الصورة بما كان قبل الاسلام وبما حدث في التاريخ الحديث . ويبدأ هذا التصور المقترح بمدخل قصير عن عرب ما قبل الاسلام في شبه الجزيرة العربية وأطرافها ، وهنا يمكن اختيار معركة « ذي قار » منها نموذجاً للدراسة . وبعد قيام الاسلام والهجرة الى المدينة ، أسس المسلمون نواة دولة مركزية فاقتضى الحال تكوين قوات مسلحة ، وهكذا نزل الازن بالقتال بعد سبعة أشهر من الهجرة ، وتحول بذلك العمل الحربي لدى العرب من نوع الصراعات الدموية الداخلية المسوغة حيناً وغير المسوغة أحياناً ، الى عمل مشروع له قوانينه التي تشرح شرحاً منطقياً الأسباب التي ترض على القتال ، والطرق التي تمكن من الانتقال من مرحلة التحريض الى مرحلة العزيمة والتخطيط والتصميم على التنفيذ ، ثم تشرح أدوات التنفيذ ومناهجه وطرقه التي تؤدي الى النجاح في المعركة ، ومن ثم تحول هذا النصر الأولي الى نصر دائم يغير الانسان والأرض ، كل ذلك ضمن نواظم خلقية « إنسانية » هادفة لتحرير الانسان في كل مكان وتمكينه من حياة اقوم وأكرم .

ولذلك حوى القانون الجديد مبادئ رائعة تتعلق بالغنائم وتوزيعها ، وبمعاملة الأسرى والشعوب المقهورة ، وغير ذلك من المسائل بحيث لا فوضى ولا ظلم ولا طغيان .

وهكذا تأسس منذ ذلك الوقت لدى العرب ، ولأول مرة ، جيش وطني قومي وقواعد « عقيدة حربية عربية » شاملة لمسائل تربية الانسان العربي ، وتحويله الى مقاتل عقائدي ينتدب الى القتال بمحضرات داخلية ، ويلتزم بالطاعة والنظام التزاماً صارماً ذلك مع الإبقاء آنذاك على نظام القبيلة والاستفادة منه الى أبعد الحدود . وانطوت تلك

العقيدة أيضاً على نواظم للاعداد للحرب والشروع بالقتال ولما يتم تطبيقه اثناء الالتحام بما يمكن من تحقيق النصر العسكري أولاً ثم تحويل هذا النصر الى حدث دائم . فلم يدخل العرب في الماضي الحرب إلا بناء على خطط لها أبعاد استراتيجية ، قائمة على تصورهم الجغرافي لعالمهم ، فلم يكونوا « غزاة » يطمعون في التوسع ، بل كانوا رسل تحرير وسلام ، ودعاة مبادئ للتوحيد والحق والخير والسعادة للإنسان في الدنيا والآخرة . وحين دخلوا محربين لاية بقعة احتفظوا بها بشكل دائم أو لعصور مديدة وتركوا فيها من الآثار الحضارية والعمرانية والزراعية والعقائدية ما لا يمكن ان تحوّه الأيام أبداً .

وهكذا نجد ان العرب ليسوا اصحاب فتوح عابرة مثل ونزال القرن الخامس في أوروبا الغربية وشمال افريقيا وفيكونغ ما بعد القرن التاسع وغزواتهم البحرية المدمرة لشواطئ أوروبا والغرب الاسلامي وتقتار جنكيزخان وحفيده هولاكو مدمر بغداد ، بل حملة عقيدة وعلم وحضارة قلما عرف التاريخ لها مثيلاً .

هذه العقيدة التي اسعى لرسم صورة لأسسها في كتاب أنا بصدد اعداده قد اخذت بالاعتبار طابع الانسان وميوله وغرائزه واحتمالات الخطأ والصواب والانحراف اثناء التطبيق - حيث تم بنجاح منقطع النظير خوض عدد من الملاحم كان على رأسها معارك الفتوحات الكبرى .

ودون مزيد من الاستطراد يمكن الاقتراح - من حيث المبدأ - تصور (قابل للنقاش) ، بأن الماضي العسكري العربي في العصور الوسطى قد مر بثلاثة أطوار رئيسية ، كل طور منها فيه ثلاث مراحل . ان هذا التقسيم - المقترح - اجمالي وشامل لاجزاء الوطن العربي مع ملحقاته الاسلامية في المشرق والمغرب .

١ - الطور الأول: يبدأ بعصر النبوة، ويمتد حتى نهاية العصر الأموي ، والاساس فيه هو الانسان العربي أصلاً وعقيدة ولغة وقانوناً وحضارة ، فهو الذي تحمل انجازات المعارك جميعها في آسيا وافريقيا وأوروبا .

في هذا الطور قام الإسلام وانتشر في شبه جزيرة

المحرض المسبب هو الاسلام ، وهذا المحرض سيكون وراء جميع الحوادث التي قامت بعد الفتوحات ، متذكرين هنا أن الاسلام مزج بين المفاهيم ، ومدركين ان حوادث تاريخ العرب والاسلام صنعت بأيدي بشر ارتبطت مثاليتهم بالواقع لا بالخيال ، وكان كثير من المسلمين إن لم نقل جميعهم متأثرين بالحديث الشريف « إن لربك عليك حقاً ، وإن لجسمك عليك حقاً ، فأعط كل ذي حق حقه » ، وكان العربي المسلم آنذاك يعمل على الأرض وقلبه مشدود الى السماء ، وقد استطاع كل عربي مسلم ان يعمل في سبيل دينه كانه يعيش ابدًا ، وكان العمل الديني عملاً في سبيل الآخرة كأن صاحبه سيموت غداً ، هذا الموضوع بمجمله من الخطورة بمكان سنقف عنده في الكتاب المشار اليه طويلاً ، حيث سنشرح شرحاً علمياً موثقاً البعد الاستراتيجي وراء قرار الفتوحات ، وخطة التنفيذ إذ نرى اسباب إرسال جيش واحد الى العراق وثلاثة جيوش الى الشام ، فإن للشام منفذاً الى مصر فأفريقيا كلها ، ومنفذاً ثانياً نحو آسيا الصغرى فالقسطنطينية فأوروبا الشرقية ، وثالثاً عبر قلب البلاد نحو الجزيرة فأرمينية وما خلفها ، هذا المنفذ الذي سيعرف فيما بعد باسم جبهة الخزر ، كما سنرى كيف عدلت هذه الاستراتيجية بعد اليرموك والقادسية ، وستحدث ايضاً عن قضايا الاستطلاع والادارة والانضباط والتنسيق بين الجبهات ودور ادارة المدينة في كل ذلك وسواه من مشكلات عزل الجيوش المعادية للعرب عن شعوبها ، وغير ذلك كثير .

وبعد هذا سنقف طويلاً عند آثار انتهاء العصر الراشدي وقيام الحكم الأموي ، ثم إقدام هذا الحكم على التورط في اعتماد مبدأ « القطعة المختارة - الجند الشامى - في الجيش القومي ، وأثار هذا كله على حركة الفتوحات وبالتالي على سقوط الخلافة الأموية .

وعليه يكون الطور الأول قد : (1) بدأت المرحلة الأولى فيه بالشهر السابع للهجرة وانتهت بنهاية حروب الردة ، على اساس ان الجهود الحربية بذلت أساساً لتوحيد شبه جزيرة العرب تحت راية الاسلام ، ولتدعيم هذه الوحدة وتثبيت أركانها : (ب) وبدأت المرحلة الثانية بتوجيه الجيوش من الحجاز لفتح الشام والعراق وتنتهي بانفجار حوادث الفتنة

العرب ، وتم تحويل الانسان العربي الى انسان جديد ، وتبدلت نوعية الصراعات ومزجت بجوهر العقيدة ، فالكفاح من اجل التوحيد كان في الوقت نفسه من اجل تحرير الانسان اجتماعياً واقتصادياً وفكرياً داخل شبه الجزيرة وخارجها ، وهكذا ففي ذروة الصراعات - في يوم الخندق - وضعت الخطط بشكل علمي واضح لتحرير العالم اجمع ، وهو ما سنراه أثناء تحليل أحداث الفتوح وذلك باعتماد نظرية علمية عربية - مقترحة - تنظر إلى الانسان على انه - صانع التاريخ ومحوره - نظرية كلية ثم تفصيلية فالانسان هذا المخلوق المتميز تقوم حياته على مجموعة من الغرائز والحواس والمشاعر وهي كلها متقلبة غير ثابتة ومتحولة ، فحياة الانسان فيها طعام وتفكير وحروب وعلوم وآداب وفنون وعبادات وسياسة وادارة وغرائز مختلفة وقوى متشعبة إلى غير ذلك ، ومقرر ان الانسان الذي فقد احدى حواسه او قواه او غرائزه او أصيب بخلل في وظائفه ليس انساناً كاملاً بل فيه عاهة ، وذوو العاهات بين البشر اقلية ، ولهذا فإن في تحليل حدث من أحداث التاريخ - بطله انسان - اقتصادياً فقط او دينياً او غريزياً : او ... او ... فقط فيه تشويه وبتر ، واعتماده كمن يعتبر ذوي العاهات بين البشر هم الاكثرية .

إن الحدث التاريخي « الكامل » مثله مثل الرقم « الكامل » ، ١٠٠/١٠٠ ، يمكن ان يحوي نسباً من الفعاليات متباينة ومتحولة لكنها غير متجمدة ولا متكلسة ولا متحجرة ، لكن هذا لا يكفي وحده ، فالشعور بالجوع غير كافٍ للدفع الى نيل الطعام ، والشعور بالظلم والاستغلال لا يؤدي دائماً الى الثورة ، كما ان حدوث الثورة لا يعني نجاحها ، واكل الطعام لا يعني الشبع والعافية ، وعليه إذا قلنا لا بد لكل حدث من سبب محرض ، نتبع ذلك بالقول بأنه لا بد بعد ذلك من ارادة للتنفيذ ، وعزيمة على التحرك ، ثم قدرة على التطبيق ، قائمة على خطة ذات أسس راسخة واضحة ، وبعد هذا قد يحصل نجاح أولي يكتب له التأثير الدائم والخلود إذا ما حول الى نجاح مستمر ، ولا يتأتى هذا إلا بوجود مرتكز عقائدي يملك صفة الاستمرارية والصلاح الدائم لكل زمان ومكان .

وعندما نقرأ حوادث الفتوح نسلم بداهة ان

الكبرى ووقوع الحروب الأهلية في الجمل وصفين والنهروان : (جـ) وبدأت المرحلة الثالثة بتأسيس حكم الأسرة الأموية في الشام ، وانتهت بسقوط خلافة دمشق . وأهم ما وقع خلالها استئثار حركة الفتوحات الكبرى ونجاح ذلك ، رغم بعض المعوقات الداخلية ثورات ونشاطات حربية كان على رأسها أعمال الخوارج . وفي الحقيقة إن هذا الطور سينال قسطاً وافراً من العناية لما له من أهمية خاصة استمرت آثارها طيلة العصور الوسطى ولم تنحذف حتى الآن في كثير من الجوانب .

٢ - الطور الثاني : ويبدأ بسقوط الخلافة الأموية ، وبتبديد جيشها العربي الذي استبدل به جيش الثورة العباسية الذي قام بتكوينه في خراسان أبو مسلم الخراساني ، ومع الأيام تحول الجيش الى جيش امبراطوري تمثلت فيه عناصر الامبراطورية العباسية من عرب وفرس ، وديلم وترك ، وكرد وبربر ، وسواهم من عبيد ومرترقة ، وذلك سواء من ناحية التسليح أم من ناحية تقاليد القتال ، وبقيت اسس « العقيدة الحربية العربية » قائمة مع بعض التعديل ، وينتهي هذا الطور بانتهاء فترة التسلط الديلمي على الخلافة العباسية .

١ - وقد بدأت المرحلة الأولى من الطور الثاني بقيام الثورة العباسية وتحطيم الجيش الأموي حيث الأموي وإزالة الجند الشامي ، مما أدى الى توقف تيار المد العسكري العربي وتحوله الى جزر حيث تم التخلي عن اعتماد مبدأ الهجوم على دار الحرب والاستعاضة عنه بمبدأ الدفاع مما أدى الى شل حركة الفتوحات ، وقيام نظام الثغور والرباطات ، وفي هذه المرحلة تحول الجيش العباسي الى جيش شبه محترف ، امبراطوري التركيب ، متعدد الأسلحة وتنتهي هذه المرحلة بوفاة الخليفة المأمون .

ب - وبدأت المرحلة الثانية بقيام المعتصم باعتماد العنصر التركي المطلوب من أسواق النخاسة واعتماد الأسرة الأموية في الأندلس على عنصر الصقالبة « السلاف » ، المطلوب أيضاً من أسواق النخاسة . وتنتهي هذه المرحلة باستيلاء الأسرة البويهية على بغداد .

جـ - وبدأت المرحلة الثالثة باستيلاء العنصر

الديلمي بزعامة الأسرة البويهية على بغداد واستبدالها بالخلافة العباسية ، وتوافق هذا مع سقوط الخلافة الأموية في الأندلس وزوال دولة الأغالية في تونس ، وتمزق أشلاء الخلافة العباسية وقيام الدول المستقلة ذات الجيوش الخاصة التي قوامها من الأرقاء والمرترقة والتي كان لها نشاطها الحربي المتميز . وانتهت هذه المرحلة بهجرة الفُرّ الترك بزعامة السلاجقة الى خراسان واصطدامهم بالدولة الغزنوية .

٣ - الطور الثالث : ويبدأ بهجرة شعوب الفُرّ التركية من منطقة ما وراء النهر الى خراسان والعراق والشام وآسيا الصغرى وأرمينية ، ثم نجاحها في تأسيس السلطنة السلجوقية التي تحكمت بالخلافة العباسية وجعلت من العنصر التركماني - التركي البدوي - المتخصص بالتسليح والسوقية ، العنصر الرئيسي في الجيوش ، وامتد هذا الطور عدة قرون ، وانتهى بمعركة وادي المخازن (٤ آب ١٥٧٨ م) .

١ - وقد بدأت المرحلة الأولى من الطور الثالث بقيام السلطنة السلجوقية وترديد أجزاء كبيرة من ديار الخلافة العباسية تحت إدارة واحدة ، وقد صار العنصر الأساسي في الجيش تركمانياً يعتمد على تسليح خاص قوامه القوس ، وكان معنى ذلك انتهاء أدوار الجيش الامبراطوري وأنعودة الى الجيش المعتمد على العنصر البدوي ، إنما القادم من سهوب ما وراء النهر ، وانتهت هذه المرحلة بوفاة السلطان ملكشاه ، وتمزق السلطنة السلجوقية الى سلطنات ودويلات .

ب - وبدأت المرحلة الثانية بالغزو الصليبي ، وانتهت بمعركة شقحب ضد المغول وتصفية الوجود الصليبي في الشرق ، وهي مرحلة غنية للغاية لا بمعاركها فحسب بل ايضاً بالتراث الفكري الحربي الذي أنتج في مصر والشام .

جـ - وبدأت المرحلة الثالثة بنهاية حكم السلطان الملوكي الناصر محمد بن قلاوون حيث كان عماد الجيش في بلاد السلطنة الملوكية الأرقاء من أصول مختلفة ، وتنتهي بمعركة وادي المخازن التي يرى فيها بعض الباحثين التاريخ الذي انتهت فيه العصور الوسطى العربية الإسلامية .

ذلك لا يمكن النجاح في صنع المستقبل العربي
الوحدوي التحرري المنشود .

وكما اشرت يمكن للدراسات التاريخية ان تخرج
حول مجموعة من المعارك أو القادة أو حول جوانب
فنية تتعلق بالسلح وسواه ، أو حول التراث الفكري
العسكري عن طريق الدراسة واحياء النصوص بشكل
نقدي . وكخطة قابلة للتحقيق في المستقبل أقترح
الموضوعات (المعارك) والقادة حسب القائمة الثالثة :

الطور الأول : ١ - بدر الكبرى ، ٢ - فتح مكة ، ٣ - يوم
الحديفة ، ٤ - فتح الحيرة ، ٥ - أجنادين ، ٦ - اليرموك ،
٧ - القادسية ، ٨ - بابلون ، ٩ - نهاوند ، ١٠ - ذات
الصواري ، ١١ - تهودة (وقتل عقبة بن نافع) ، ١٢ -
الأوراس واكمال فتح المغرب ، ١٣ - ارمينية والخزر ، ١٤ -
المشرق وما وراء النهر ، ١٥ - فتوح الهند ، ١٦ - وادي
لكة ، ١٧ - بلاط الشهداء ، ١٨ - محاولات فتح
القسطنطينية .

الطور الثاني : ١٩ - الرباطات المتوسطة ، ٢٠ - الثغور
الشامية والخزيرية ، ٢١ - فتح كريت ، ٢٢ - عمورية ،
٢٣ - فتح صقلية ، ٢٤ - المنظمات شبه العسكرية ،
(عيارون وشطار وأحداث وفوة) .

الطور الثالث : ٢٥ - مازركد ، ٢٦ - الزلاقة ، ٢٧ -
قلاع بلاد الشام أيام الحروب الصليبية ، ٢٨ - حطين ،
٢٩ - الأرك ، ٣٠ - عين جالوت ، ٣١ - المنصورة ، ٣٢ -
شقحب ، ٣٣ - وادي المخازن .

ومن العسكريين وقع الاختيار على القادة :

(من الطور الأول) : ١ - خالد بن الوليد ، ٢ - المثني
ابن حارثة الشيباني ، ٣ - سعد بن أبي وقاص ، ٤ - عمرو
ابن العاص ، ٥ - أبو عبيدة عامر بن الجراح ، ٦ - النعمان
ابن مقرن ، ٧ - عقبة بن نافع ، ٨ - حسان بن النعمان ،
٩ - طارق بن زياد ، ١٠ - عبد الرحمن الغافقي ، ١١ -
محمد بن القاسم الثقفي ، ١٢ - قتيبة بن مسلم الباهلي ،
١٣ - المهلب بن أبي صفرة ، ١٤ - مسلمة بن عبد الملوك .

(الطور الثاني) : ١٥ - المعتصم بالله العباسي ، ١٦ -
المنصور بن عامر ، ١٧ - سيف الدولة الحمداني .

(الطور الثالث) : ١٨ - مسلم بن قريش العقيلي ،
١٩ - يوسف بن تاشفين ، ٢٠ - آق سنقر البرسقي ، ٢١ -
عماد الدين زنكي ، ٢٢ - نور الدين الشهيد ، ٢٣ -

إنني حين افتح ملف هذا الموضوع الفائت
الاهمية ، والعظيم الخطورة أدعو جميع المهتمين
وذوي الاختصاص لإغثائه ، ولناقشة التصور
المقترح ، ومن ثم الاسهام في دراسة كل طور من
الاطوار بشكل مجمل أو مجزأ في ابحاث يتم وقفها
على معركة من المعارك أو قائد من القادة . [هذا
وسالحي مقالتي هذا بقائمة مقترحة لبعض المعارك
والقادة] ، مدركاً تمام الادراك ان دراسة الاطوار
والمراحل المقترحة تحتاج الى جهود متضافرة مستمرة
وطويلة ، وهذا وإن صعب تنفيذه إلا انه ليس فوق
طاقة الباحثين العرب والمسلمين وسواهم من المهتمين
بالدراسات الاسلامية ، وهنا أقترح مجدداً ان تخرج
المحصلات المدروسة على نوعين من الكتابات ، نوع
يتوجه نحو جميع القراء ويستفاد منه من قبل جميع
العسكريين والمدنيين ، ونوع ثانٍ اكاديمي متخصص
يقرأ من قبل كبار الضباط والقادة ورجال
الاختصاص ، وفي جميع الأحوال ينبغي ان يعتمد
العمل على العرض التحليلي العلمي : المبسط المركز ،
أو الاكاديمي الرفيع .

ويتم التركيز على ابراز الجوانب المرتبطة بالادارة
الحربية ، والاقتصاد العسكري ، والتسليح
والتدريب ، وجوانب الابداع العبقري القتالي ، ويدور
العمل كله حول تحليل للتاريخ « عربي الاسس
والمنطلقات » ، يهتم بإيضاح صفات المقاتل العربي
واخلاقه العقائدية ، ويلج باصرار واستمرار على
وحدة الأمة العربية عبر التاريخ وتفاعل أحداثها
بعضها ببعض شرقاً وغرباً .

ويفضل ان تعنى جميع الدراسات بابراز الجوانب
الاجابية ، ويتجاوز الجوانب السلبية حيث يمكن
التجاوز وحيث لا يمكن تعلل هذه الجوانب لتعليلاً
منطقياً مسوغاً واقعياً وجريئاً فيه العظة والعبرة ، ذلك
انه على رأس الأهداف المبتغاة من هذه الدراسات
تأتي إعادة الثقة للذات العربية وتماسكها ، ونقل هذه
الصورة الى الحيز العالمي لتتال مكانها اللاتق المحترم
بشكل غير عدواني أو مستضعف .

ان العمل في هذا كله وسواه ينبغي ان يكون
ضمن منظومة هادفة مفادها : التراث الحربي العربي
صنعه بنجاح في الماضي رجال امتنا ، ويمكن الآن
اعتماد هذا التراث مرتكزاً في سبيل التقدم ، وبدون

المصور الموحدي ، ٢٤ - صلاح الدين الأيوبي ، ٢٥ -
الناصر لدين الله العباسي ، ٢٦ - جلال الدين منكبرتي ،
٢٧ - الظاهر بيبرس ، ٢٨ - قلاوون ، ٢٩ - حسن الرماح ،
٣٠ - المنصور الذهبي .

لا شك ان البحث في كل هذا انما يشكل برنامجاً طموحاً ،
يحتاج تنفيذه الى زمن مديد وجهود جماعية متواصلة ،
وهنا أقترح ان تتولى جامعة الدول العربية الاشراف على
مثل هذا العمل ، ومن حيث المبدأ - وكما أشرت - قطعت
شوطاً كبيراً في اعداد دراسة يخرج في مجلد منفرد او
مجلدين - تأتي مَدْخلاً الى تاريخ العرب العسكري ، بحيث
يتم في هذا المدخل الاجابة على بقية الاسئلة المطروحة ،
ووصف اطوار ومراحل تاريخ العرب العسكري في العصور
الوسطى وصفاً فنياً عاماً ، فيه مقارنة بفنون الحرب عند
الامم الأخرى الماضية - وحتى مع فنون الحرب الأجنبية
المعاصرة إذا امكن ذلك - مع ذكر المصادر الأساسية لكل
مرحلة ووصفها وتقويمها ، ورسمت لهذا المدخل مخططاً
أولياً لموضوعاته يبحث فيما يلي :

أولاً : (بشكل تمهيدي عام) : أهمية موضوع
التاريخ : تطور علم التاريخ وتعدد موضوعاته : مكانة
التاريخ العسكري بين هذه الموضوعات وصلاته بها واطره
العامة والخاصة ومنافع دراسته : اعطاء لمحة مركزة عن
تاريخ الحروب لدى حضارات شعوب البحر الابيض
المتوسط .

ثانياً : (بشكل خاص) : التاريخ العربي (مصادره -
البحث فيه قديماً وحديثاً من قبل العرب وسواهم) : عرض
مكتف لمراحل تاريخ العرب السياسي منذ قيام الاسلام
وحتى بداية العصر الحديث : مكانة التاريخ العسكري ودور
الجند في التاريخ العربي : وصف لكل طور ومرحلة مع
وصف وذكر تقويمي لأهم المصادر : شريعة الحرب عند
المسلمين (الاذن بالقتال - وضع قانون الحرب - محتويات
هذا القانون ، واهدافه من الناحية النظرية والتطبيقية -
مشكلات الغنائم ، الجرحى ، القتل ، الاسرى ، الاراضي
المستولى عليها وشعوبها) : تأسيس ادارة الحرب وتطورها
(ديوان الجند - العطاء) : الأسلحة (انواعها -
تصنيعها - استخداماتها - تطويرها) .

وثانية أعود الى التأكيد ان هذا المقال مع
موضوعات كتاب « المدخل » تستهدف أولاً وقبل كل
شيء جعل القراء العرب ، وخاصة العسكريين منهم

والمختصين بتاريخ العرب والاسلام يقبلون على
الاسهام باغناء هذا الموضوع عن طريق اثارة جوانب
جديدة منه ، أو بتعميق دراسة بعض الجوانب ، ذلك
ان هدي هو الكشف عن قواعد « علم التاريخ
العسكري العربي بشكل علمي اصيل ومتوازن »
بحيث تغدو هذه القواعد بمثابة قوانين ومركزات
تقوم عليها الدراسات المقترحة وغيرها من الدراسات
من قبل الباحثين العرب في الوطن العربي في المشرق
والمغرب .

إن ما أصبو اليه تحقيق مبدأ وضع علم فن
الحرب للماضي العربي ، فذلك سيكون مساعداً إلى
ابعد الحدود على فهم الماضي العربي بصورة ايجابية
ثم صنع المستقبل العربي المنشود ، وعندما يعمل
الكتّاب العرب باحثين عن عقيدة العرب القتالية فلا
شك انهم سيجدون معالمها ، وكم عظيم معرفة عقيدة
عرب الماضي القتالية فذلك سيكون له ما لا يحصى من
الفوائد لعرب الحاضر والمستقبل .

وفي ختام بحثي هذا أشير الى ان عملي في كتاب
« المدخل » المذكور اعتمد على عدد كبير من المصادر
والدراسات بالعربية وغير العربية مطبوع ومخطوط ،
وأثناء عملي في الكتاب أحلت على بعض المصادر ، لكن
هذه المصادر لا تمثل في الحقيقة إلا قسماً صغيراً
جداً ، وقاعدتي في العمل ان العلماء - وأنا تلميذ
لهم - مصدقون فيما يروون يمارون فيما يرون ، ومع
هذا سأضيف الى كتابي - عند خروجه - ملحقاً
بأسماء المراجع والمصادر يضم الكتب التي تم
اعتمادها والاستفادة منها ، مع أسماء مصادر يمكن
العودة اليها للتوسع في بعض النقاط .

في الحقيقة ان هذا الملحق لن يكون الوحيد بل
سيسبقه ملحق آخر ، يتضمن عدداً عن النصوص
التراثية العربية التي يمكن للقارئ والباحث ان يريا
فيها نماذج من الاسهامات الفكرية العربية في مجالات
السياسة والتكتيك والاستراتيجية وغير ذلك من
موضوعات التاريخ العسكري وفنون الحرب ، وهذا
الملحق الوثائقي سيوضح جلياً ان العرب في الماضي
اعتمدوا على انفسهم ، وعلى جهودهم وعقولهم فحققوا
عظيم الانجازات ، مما يوحي ان الفرصة لا زالت
سائحة أمام عرب هذا العصر للسير على طريق وضع
معالمه السلف .